E- ISSN : 2571-9742

الرحلات الجزائرية إلى بلاد الحرمين من خلال رحلتي البجائي والورتلاني

أ.د. عبد القادر صحراوي
جامعة سيدي بلعباس
sahraoui1959@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: **2017/01/15** تاريخ القبول: **2018/03/01** تاريخ النشر: **2018/03/31**

الملخص:

يعد أحمد البجائي من أدباء الجزائر في القرن 9الهجري ،تعلم وعاش في الجزائر وتونس أثناء العهد الحفصي ثم هاجر إلى المشرق العربي مبكرا، فمر بتونس ومصر وطرابلس الشام ليستقر في الحجاز وجاور بالمدينة المنورة. وفي رسالة "الغريب" يخبر البجائي بأنّه قد حقق ما كان يصبو إليه بنزوله بالحجاز وبالمجاورة في الحرم المدني، وأنّه حقق الراحة النفسية واطمئنان البال ، وأخبر فيها أنّه كان يقضي أوقاته في التدريس، وخصوصا كتب الصّحاح ، وشفاء القاضي عياض. ثمّ أخبر أنّه عندما تدخل الأشهر الحرم كان يرافق الوافدين على حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووصف عددا من الوافدين ومناسك الحج، كما ذكر الكثير من العلماء والفقهاء المجاورين في المدينة المنورة. أما الرحالة الحسين الورتلاني 12د 18م)،فينتمي إلى أسرة علم وصلاح ،تعود أصولها إلى تافيلالت بالمغرب الأقصى .

وانتقلت إلى مدينة بجاية ،ثمّ استقرت في ببني ورتلان بنفس المنطقة في الجزائر خلال العهد العثماني. وتعرض الورتلاني في رحلته المسماة:"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" بالتفسير لمعالم طريق الحج الوعرة والسهلة، واعتمد الورتلاني على مجموعة من المصادر مثل : "عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان" للشاطبي من اجل كتابة رحلته. وقد ساهمت رحلاته المتعددة إلى الحج واتقانه للغة العربية ، ومعرفة عادات الدول التي مر بها إلى إصدار أحكاما منصفة على العصر الذي عاش فيه ،وسجلت الرحلة الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية، مثل وصفه لطريق الحج المحفوف بالمخاطر ، وترجمته للعديد من العلماء والصلحاء والمشايخ ، سواء الذين درس عليهم، أو أولئك تقرب منهم. ويشير في رحلته إلى سلوك الحجاج، وترك انطباعاته عن ركب الحجيج من مختلف الدول الإسلامية .

الكلمات الدالة:

البجائي – الورتلاني – الرحلات الجزائرية إلى الحرمين الشريفين – مجاورة المسجد الحرام والمسجد النبوي

E- ISSN : 2571-9742

. **Abstract:**

Ahmed al-Bajai is a writer of Algeria in the ninth century AH, learned and lived in Algeria and Tunisia during the period of the Hafs and then migrated to the Levant early, Vamr Tunisia, Egypt and Tripoli Sham to settle in the Hijaz and Jadr Medina. In Al-Gharib's letter, Al-Bajai said that he had achieved what he had hoped for when he came to the Hijaz and adjacent to the Civil Campus. He achieved psychological comfort and peace of mind and told him that he spent his time teaching, especially the books of the Sahih and the healing of Judge Ayyad. Then he said that when he entered the holy months he was accompanied by the arrivals to the presence of the Prophet peace be upon him, and described a number of arrivals and pilgrimage rituals, as mentioned by many scholars and scholars close to Medina. The traveler al-Husayn al-Warthilani (12 AH-18 CE) is a member of the family of science and goodness, whose origins date back to Tafilalet in the Far East. And moved to the city of Bejaia, and settled in Bbni and Rutlan in the same region in Algeria during the Ottoman period. Al-warthilani, on his journey, "Taking a look at the virtue of history and the news", presented the interpretation of the rugged and easy way of pilgrimage. Al-warthilani also relied on a number of sources, such as "Al-Joman in the Chronicle of Time" for my companion to write his journey. His trips contributed to the Hajj and his proficiency in the Arabic language and to the knowledge of the customs of the countries he passed to make fair judgments about the age he lived in. The trip recorded the economic and social conditions, such as describing the dangerous pilgrimage route and translating it to many scholars, salahs and sheikhs, , Or those close to them. And refers in his journey to the behavior of pilgrims, and left his impressions of riding pilgrims from various Islamic countries. These are some of the ideas that we seek to expand and clarify, and to highlight the cohesion of the Islamic countries through trips in general, and trips of Algerian scientists to the country of the Two Holy Mosques

Key words:

Albijai – Alwarthilani – Algerian trips – holy mosques of Mecca and Medina

.

تعددت مفاهيم الرحلة كثيرا، غير أنها تعني لغويا ركوب الإبل أو الجياد التي يتم ترويضها حتى تصير راحلة وتختلف الرحلات باختلاف الأهداف التي يتوفر البشر تحقيقها. وقد بدأ الاهتمام بالرحلات في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وألفت فيها كتب ومؤلفات كثيرة حتى أصبحت فنا أدبيا وعلما مميزا. وكان للعرب عامة والجزائريين خاصة اهتماما بالغا بالرحلات، وفي هذا السياق ندرج رحلتي أحمد أبو عصيدة البجائي خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وحسين الورثلاني في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي إلى أرض الحجاز ومجاورتهما للحرمين الشريفين، وما تكتسيه الرحلتان من أهمية تاريخية.

E- ISSN : 2571-9742

- التعريف بأحمد البجائي القرن 9 هـ/15م:

عاش أحمد أبو عصيدة البجائي خلال القرن 9 هـ/15م، وهو من مدينة بجاية على الساحل الشرقي للجزائر، ولعله ولد في العقد الثالث من القرن التاسع الهجري، وكانت له علاقة قرابة مع عائلة المشدالي، مما يرجح أنه من قرية مشدالة القريبة من بجاية .وتعلم البجائي بمسقط رأسه على يد عدد كبير من الشيوخ من بينهم محمد المشدالي، وكان مفتيا لامعا ببجاية، وفي ذات الوقت والد صديقة أبو الفضل المشدالي الذي يحتمل أنه عايشه ببجاية قبل عام 840 هـ، ونجد هذا الأمر واضح في "رسالة الغريب إلى الحبيب" التي كتبها البجائي إلى المشدالي المقيم في القاهرة.

وتميز العصر الذي عاش فيه البجائي بضعف سياسي كبير، على إثر تراجع المد الإسلامي في الأندلس، وتعرض السواحل المغاربية للتحرشات الإسبانية والمسيحية، ومما ساهم في هذا الضعف الصراعات السياسية التي ميزت دويلات المغربين الأقصى والأوسط والأدنى، ما أدى إلى سيطرة الإسبان على الأراضي الإسلامية، واستمر الوضع على هذا الحال إلى غاية الاستنجاد بالعثمانيين.

أما فيما يخص بجاية فكانت تابعة للدولة الحفصية في تونس، ومن أشهر الحكام الحفصيين الذين عايشهم أحمد البجائي هو أبو عمروعثمان بن محمد المنصور بن عبد العزيز (821 – 893 هـ)، وكان حاكما عادلا، حيث ساد الإمارة في عهده الأمن والاستقرار، وهو ما نوه إليه البجائي في الكثير من قصائده الشعرية. وعاصر البجائي الكثير من العلماء في بجاية وتونس إثر انتقاله إليها، ومن ثم مواصلة الرحلة إلى أرض الحرمين، ومن هؤلاء منصور بن عثمان البجائي مفتي المدينة في عام 846هـ، ومحمد المشدالي والد أبي الفضل المتوفي في 867هـ، ويشير البجائي إلى وفاة محمد المشدالي الابن في عام 859م، مما يرجح كتابته لرسالة الغريب قبل هذا التاريخ.

عاش أحمد البجائي حياة زهد وانقطاع عن الدنيا، ومما يدلنا على ذلك مجاورته للحرم النبوي وإخلاصه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتفانيه في تدريس الحديث النبوي الشريف، ومجالسته للعلماء ومراسلاته لهم في الديار الإسلامية، مثل صديقه أبو فضل المشدالي في القاهرة، واهتمامه بالتصوف حيث أشار إلى سير شيوخ الطرق الصوفية وآدابهم وأخلاقهم ومواجدهم، ولذلك يعتقد أنه كان شاذليا .ومن خلال رسالة الغريب نستشف أنه قام برحلتين إلى أرض الحرمين، دامت الأولى ثلاث سنوات، تلتها الرحلة الثانية التي جاور بعدها الحرم النبوي، وكتب رسالة الغريب التي فصل فيها رحلته والتطورات التي عرفها في حياته، ويرجح أنه توفي في عام 865 هـ.

E- ISSN : 2571-9742

- رحلة أحمد البجائي إلى بلاد الحرمين ومجاورته للحرم النبوي:

ارتبطت رحلات البجائي بصديقه المشدالي كثيرا، حيث يشير إلى لقاءه به في مصر، ومجالسته إياه قبل توجهه إلى الحجاز، ولكننا نشير إلى أنه حج مرتين، وبالتالي يكون قد سبق صديقه إلى المشرق، وهكذا فإن "رسالة الغريب إلى الحبيب" وكذلك "أنس الغريب وروض الأديب" تضمنتا أداؤه لفريضة الحج أول مرة، حيث أقام بالمشرق ثلاث سنوات قبل عودته إلى تونس، ويسمي ذلك رحلته الأولى، حيث يذكر أخبار بعض الجزائريين والمغاربة في المهجر وفي أوطانهم . وفي تونس سأل عن الكثير من أهله وأصدقائه في بجاية، فذكر له أن الكثير منهم قد توفي، فضاق عليه الأمر وولى راجعا إلى الأرض الحرمين عبر مصر ، ويذكر استعداده في مصر للرحيل والوداع، وهو يقصد هنا توديع صديقه المشدالي رغم شدة الشوق والدمع المدرار، راجيا ملاقاته في أرض الحجاز، وفي هذا يقول :

ولولا التعلل أن نلتقي ويجمعنا الدهر بعد الفراق
لذبت اشتياقا ولكنني أعلل قلبي بيوم التلاق

وربما يكون عام 856هـ هو تاريخ مراسلة البجائي لصديقه المشدالي من أرض الحرمين، حيث كتب "رسالة الغريب إلى الحبيب" والتي تضمنت رحلته وشوقه إلى صديقه.ووصف أحمد البجائي حالته في أرض الحرمين حيث أكد أنه يحمد الله ويدعو لصديقه، ويعلمه أن الهجرة والجوار بالحرم أفضل من البقاء مع أهله في بجاية، ويشير إلى راحته النفسية بفضل قراءته لصحيح البخاري وكتاب الشفا في شهر رمضان عند الروضة الشريفة. وكان يحضر دروس البجائي في الحرم النبوي علماء فضلاء والكثير من زوار الحرم النبوي خاصة أثناء ختمة الحديث النبوي الشريف، وعرف عن البجائي نظمه للشعر، الذي جمع فيه بين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والخليفة الحفصي أبو عمروعثمان، وقد بلغ عدد أبيات قصيدته في المديح النبوي تسعا وخمسين بيتا.

ولعل إحساسه بنعم الله وانقطاعه عن الدنيا عند جواره للحرم النبوي هو الذي خفف عليه غربته، التي نستنتجها من رسالة الغريب وكذا أنس الغريب، هذا الكتاب الأخير الذي ألفه ليكون جليسه في خلواته، وأنيسه في غربته . وخلال المجاورة التقى البجائي العديد من العلماء الأخيار، ذكر منهم الشيخ أبو الفتح بن علي بن إسماعيل، وكان عالما لغويا أزهريا شافعيا، كما كان والده رجلا صالحا، وللبجائي وأبي الفتح رؤى مختلفة بشأن ترجمة البجائي للمشدالي، فقد ادعى العالم الأزهري أن وصف البجائي

E- ISSN : 2571-9742

للمشدالي مبالغ فيه، في حين أكد البجائي أن المشدالي لا نظير له في المغارب والمشارق، وأن لا شبيه يوازيه أو يدانيه.

والتقى البجائي في المدينة المنورة فخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي، الذي وصفه بالعلم والتقوى والأدب، وكان هذا العالم حنفيا يجلس في الحرم للإقراء، ودرس عليه العديد من التلاميذ الذي أجازهم وأذن لهم في الإقراء، ومن أشهرهم كمال الدين الهمام، وغالبا ما كان البجائي يلتقي بفخر الدين عثمان الطرابلسي في المسجد النبوي وفي بيته أي بيت البجائي، ونشير إلى تعرف فخر الدين بأبي الفضل المشدالي خلال زيارة هذا الأخير إلى الشام، وإدراكه لمكانته العلمية.

وأثناء وجوده بأرض الحجاز ذكر أحمد البجائي رحلته من مصر إلى أرض الحرمين وتحسر على فراق صديقه المشدالي، وحثه على مراسلته، وهو الأمر الذي أجابه عنه هذا الصديق، كما ظل البجائي يدعو لصحابه منه وصوله إلى الحرم مما يبرز وفاؤه وشوقه إليه. وبلغت مراسلاته للمشدالي حوالي أربع رسائل، ابتغى من ورائها تحقيق الود والحب بينهما، كما سأل عنه قوافل الحجاج القادمة من مصر، واعتبر المقاطعة جفاء من هذا الخليل، وما أثر فيه أكثر سؤال علماء المدينة عن المشدالي وتيقنهم من صداقة المشدالي للبجائي، هذا الأخير الذي وعد أهل المدينة، وهم بجوار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بزيارة المدينة المنورة بعد أن زار مكة وبيت المقدس قبل ذلك، وهكذا تخيله بجانبه يقرئ بالحرم النبوي الشريف، وينشر العلم بين الناس، وبعد إفاقته نصح المشدالي بتنفيذ وعده وعدم التأثر بحياة الرغد التي يعيشها في القاهرة.

وارتبط أحمد البجائي بالرسول صلى الله عليه وسلم أيما ارتباط، فقد عدد في رسالة الغريب من جهة، وأنس الغريب من جهة أخرى نعم الله الجسام التي يعيش فيها بمجاورته للحرم النبوي الشريف، فعينه مشغولة عن المحرمات بالقرآن الكريم، وقدمه ميسرة للطاعات، وهو يعيش في مسرات، وهذا ما تتوق إليه النفوس الطيبة. ونستنتج من كلامه ابتعاده عن طلب الرتب والوظائف، كما هو حال صديقه المشدالي في القاهرة، لكننا نؤكد على وجوب التفريق بين ما كان يصبو إليه كل منهما في المدينة المنورة والقاهرة. وعلى الرغم من الاختلاف بين العلماء فيما يتعلق بالتوسل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن أحمد البجائي قد كتب العديد من القصائد في ذلك، حتى قال في رسالة الغريب: "يا سيدي يا رسول الله إني توجهت إليك بك إلى الله، فلا تسلمني ولا تهملني لأني:

هاجرت نحوك من أقصى البلاد وقد هجرت أهلي وأحبابي وأملاكي

E- ISSN : 2571-9742

وقد نزلت حماك الآن معتضدا أسير ذنب عظيم حائرا باك
وعادة العرب العرباء جارية حمى النزيل وكشف الضيم للشاكي

ولا ريب أن أحمد البجائي قد ترك الأهل والأحباب في بجاية، لكن مجاورته للحرم النبوي أعظم من ذلك، ففي المسجد النبوي قرأ البخاري ومسلم وكتاب الشفا للإمام أبي الفضل عياض، وأتم ذلك في السادس والعشرين من رمضان بين المنبر والضريح، بحضور جمع من العلماء والصلحاء وزوار الحرم . وقد لامه بعض أصحابه من تونس على طول إقامته بالحجاز، واعتبروا ذلك غير مطلوب شرعا، وأن الانقطاع عن الأهل يتسبب في الفقر والحاجة والغربة، إلا أن أحمد البجائي رد عليهم ردا واضحا، وبين بالأدلة المقنعة أن الهجرة أفضل عنده، لأنها مدعاة للإيمان وزيادة في حب خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الغربة قاسية ما لم يصل الإنسان إلى الحبيب، الذي يقول: "كن في الدنيا كأنك غريب"، كما أشار إلى أن الإمام مالك بن أنس كره المجاورة احتياطا وخوفا على الناس، وتقصيرهم عن القيام بحق واجب المقام، أي مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأعلم مراسليه أنه لا يبغ بديلا عن الحرم النبوي، وفي هذا السياق يقول:

إذا كنت جار المصطفى ونزيله فيقبح بي شوقي لأهلي وجيراني
أأرغب عن دار بها الخير كله وفيها هوى القاص وأمنية الداني

-التعريف بالحسين الورثلاني:

ينتمي الحسين الورثلاني إلى أسرة علم وصلاح تعود أصولها حسب الكثير من المصادر التاريخية إلى شرفاء تافيلالت بالمغرب الأقصى، وانتقلت إلى مدينة بجاية، ثم استقرت في عهد جده على البجائي ببني ورثلان، وظهر من هذه الأسرة العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة، فوالده محمد السعيد عالم في التوحيد، مدرك للتصوف وفقيه محقق ويصفه بقوله: "... الوالد رحمه الله لأنه أفقه زمانه وما رأيت مثله في الفقه إذ أنه في التحقيق بمكان..." ، وكان يدرس بزاويته ببني ورثلان مختلف العلوم الشرعية التي أخذها عنه عدد كبير من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد قضاة ورجال فتوى ببجاية وغيرها من مدن الجزائر في العهد العثماني، واقتدي بأخلاقه ومثله، إلا أنه لم يكن ليرض بالأوضاع التي آلت إليها الجزائر خاصة بعد أن أصبحت المناصب الدينية كالإفتاء والقضاء تشترى بالمال، ووصل به الأمر إلى الامتناع عن أداء الصلاة ومنها الجمعة خلف هذا النوع من العلماء والأئمة.

E- ISSN : 2571-9742

وكان جده الحسين مدرسا ومطلعا وباحثا وحافظا لمختلف الكتب التي تتناول علوم الظاهر والباطن، كما اشتغل مفتيا، ويذكر الحسين الورثلاني أن جده هذا قد درس بجامع الأزهر بمصر، وأن "محمد بن عبد الباقي الزرقاني شارح الموطأ وشارح المواهب اللدنية" ، قد درس عليه، ومن أجداد الورثلاني أيضا يحيي الورثلاني الذي كان يملك خزانة من الكتب، وكان هذا الرجل فقيها ومتصوفا وعالما بالتوحيد، ومشرفا على زاوية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء الجزائر. أما أحمد الشريف الذي استقر في البداية ببجاية، ثم انتقل إلى بني يعلى قد تصاهر مع محمد بن يعلى حاكم الإقليم، وقد بنى له بعد وفاته ضريح تحول إلى مزار للناس كافة.

وولد الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف في سنة 1125 هـ/1713 م ببني ورثلان، وتلقى مبادئ تعلمه على يد أبيه وشيوخ بني ورثلان، وهكذا حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه واللغة وبقية علوم الظاهر والباطن، وانتقل بعد ذلك إلى زوايا جرجرة ودلس والجزائر . ولا يزال قبر الشيخ الورثلاني يزار إلى اليوم ببني ورثلان التي كان تضم زوايته ومدرسته ومسجده، وكان الطلاب يأتونه من مختلف أنحاء الجزائر، ولقد نشأ الشيخ الورثلاني في قريته ذات التضاريس القاسية، غير أنه لم يتعرض لهذه الفترة من حياته في مؤلفاته المختلفة، ونفس الأمر تغاضى عنه معاصروه، وركز هؤلاء على حياة الورثلاني عندما بلغ مبلغا كبيرا من العلم والفقه المالكي، وعلى الرغم من ذلك ظلت تراجم هؤلاء المعاصرين ناقصة وبعيدة عن المجالات العلمية التي اخترقها.

وامتدت حياة الورثلاني من 1125 هـ إلى 1193 هـ / 1713 م – 1779م، ولم تهتم المصادر التاريخية والذين ترجموا له بوفاته كثيرا، اللهم إلا الإشارة التي بينت أن وفاته كانت في شهر رمضان، في حين يقول الحفناوي: "وأما وفاته رحمه الله فقد رأي النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن الثالث عشر، فتكون وفاته كما أخبر به الصادق المصدوق، لأنه لا ينطق عن الهوى" ، ويظهر لنا هذا النص عدم الاهتمام بتواريخ الوفاة، والأمر نفسه نلاحظه في رحلة الورثلاني كما سنوضح لاحقا. وأدى هذا العلامة فريضة الحج ثلاث مرات، الأولى برفقة أبيه وهو ابن ثمانية عشر سنة وكان ذلك في 1153 هـ/1740 م، والثانية عند بلوغه سن الواحدة والأربعين أي في سنة 1166 هـ/1752 م، والثالثة دامت ثلاث سنوات أي أنها كانت ما بين 1179 و1181 هـ/1765 – 1768م وقد أتمها في الرابعة والخمسين من عمره ، وتبين هذه الرحلات بجلاء الفترات

E- ISSN : 2571-9742

الطويلة من عمره، والتي قضاها في السفر ساعيا وراء العلم، ومدرسا لمجالاته المختلفة، ومؤلفا في مختلف علوم عصره.

وحرص الحسين الورثلاني على توسيع معارفه، وتنمية معلوماته وثقافته سواء كان ذلك في قريته ببني ورثلان، أو خلال تنقله بين بعض مدن الجزائر، أو حتى خلال رحلاته إلى الحج والديار المقدسة. وهكذا درس على يد مجموعة من الشيوخ، ففي بلدته أخذ العلم على يد والده خاصة ما تعلق بالفقه، وكذلك علي بن أحمد بن عبد الله، والشيخ اليعلاوي وهو تلميذ جده الحسين، إضافة إلى الشيخ أحمد زروق بن أحمد بن الشيخ العنابي، وقد نال نتيجة لذلك حظا كبيرا من العلم والمعرفة. إلا أن تلهفه إلى المزيد جعله يتوجه نحو مراكز علمية أخرى خارج وطنه الجزائر، وهكذا استفاد من حجاته المتعددة إلى أرض الحجاز للاتصال بعلماء في تونس، وليبيا أو طرابلس كما كانت تسمى، إلى جانب مصر والأراضي المقدسة.

رحلةالورثلاني وأهميتها التاريخية:

يمكننا تقسيم الرحلات خلال العهد العثماني إلى علمية وحجازية، وضمن النوع الثاني تدخل رحلة الورثلاني المسماة: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، ويبرز هذا العمل شعوره بالتاريخ، خلافا للعلماء الذين عاصرهم، وقد حز في نفسه عدم اهتمام أهل وطنه بالتاريخ وسخريتهم من دراسته ودارسيه، بينما رأى هو أن علم التاريخ يزيد في فضل الإنسان، ويبعده عن القبائح، ويرى أيضا أن مرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ، وهو طموح إلى نيل مرتبة عليا علما وولاية . وتضمنت مقدمة رحلته ذكر الأهداف من تأليفها، فهي عبارة عن تراجم لحياة عدد من العلماء والأولياء، الذي ذكر أوصافهم، ودعا إلى الاقتداء بهم، وتتبع آثارهم، باعتبار أن هذا النوع من الآثار منعدم في الوطن، وفي هذا يقول: "لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا، فرسمنا كل ذلك رسما جيدا، فحفظت من كل خلف وصف أسلافه، ونقلت من كل نوع أخبار أصله، علما مني لا يمجه السمع السليم، والطبع المستقيم، ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا، ورحمة لما يحصل من اقتباس الأنوار في وطننا. "

كما تعرض بالتفسير لمعالم طريق الحج الوعرة والسهلة، مما يجعله يعرف من خلالها مدى استطاعته أو عدمها على الحج، واشتهرت الرحلة منذ أن انتهى من كتابتها، وقد نسخها سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي في سنة 1182هـ / 1768م، وربما يكون قد نسخها مرة أخرى، وتوجد منها حاليا بالمكتبة الوطنية في الجزائر عدة نسخ منها ثلاثة تحت رقم 2171 و2743

E- ISSN : 2571-9742

و2968، وكانت قد صدرت أول طبعة حجرية لها في تونس في سنة 1903م، ثم طبعت بمطبعة بيارفونتانا بمدينة الجزائر سنة 1908م، بعد أن صححها محمد بن أبي شنب الذي قابل ثلاث مخطوطات، والنسخة المطبوعة بتونس، ونشرها بطلب من الحاكم العام الفرنسي جونار. وتحتوي النسخة على 713 صفحة، بالإضافة إلى خمس صفحات تشمل مقدمة الناشر والمصحح، مع ذكر ترجمة للمؤلف، وهناك 105 صفحات من الفهارس الخاصة بالأعلام، وأسماء الأماكن والقبائل والأعراش، وأخيرا أسماء المصادر التي تزيد عن 330 مصدرا في مختلف العلوم.

وعلى الرغم من الحشو الذي ميز الرحلة، والتكرار ونقص الترتيب، إلا أنها عبارة عن مؤلف عام جمع العديد من العلوم مثل التوحيد، والفقه، والتفسير، والنحو، والبلاغة، والصرف، والتصوف، ومادة تاريخية وجغرافية غريزة، وإضافة إلى ذلك تعتبر الرحلة شهادة عن الأحوال السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية في الجزائر والوطن العربي، أو على الأقل البلدان العربية التي مر بها أثناء رحلة الحج إلى الحجاز. واعتمد الورثلاني على مجموعة من المصادر في كتابة رحلته منها رحلة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، والمعروفة بالرحلة الناصرية، وكتاب "النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة" لأبي عبد الله محمد بن علي بن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، و"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وكتاب "عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان" لمحمد الشاطبي، وكتاب "الأدلة السنية في مفاخر الدولة الحفصية" للشيخ ابن الشماع الحفصي، واقتبس أيضا من "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية "لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، و"رياض الصالحين" لعبد الرحمن الثعالبي، كما اعتمد على مصادر أخرى في الفقه والتصوف والتوحيد، تجاوزت الثلاثمائة مصدر، منها الوغليسية لمحمد الوغليسي، وصحيح البخاري، وكتاب خليل لابن إسحاق وغير ذلك.

ولم يهتم المؤرخون والدارسون برحلة الورثلاني إلا مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر مثل شارل فيرو "Féraud" في سنة 1869م في بحث عن مدينة بجاية، وكانت دراسته خاصة بسكان المدينة وجبال المنطقة الوعرة، ونفس الشيء قام به فايست "Vayssettes"في 1869م أيضا، إذ تناول جوانب من حياة الورثلاني وعلاقته بالبايات. وفي مطلع القرن العشرين، وعلى إثر طبع الرحلة واهتمام الباحثين بصاحبها، ترجم أبو القاسم الحفناوي للورثلاني في القسم الثاني من كتابه "تعريف الخلف برجال السلف" الذي طبع بالجزائر في سنة 1906م، كما اهتم مارسيي "Mercier" برحلة

E- ISSN : 2571-9742

الورثلاني في سنة 1931م، وطالب بترجمتها إلى الفرنسية، الأمر الذي دفع الحاج صدوق إلى نشر دراسة عن الرحلة في المجلة الإفريقية سنة 1951م، وبعد ذلك تناول حياة الورثلاني عدة مؤرخين مثل خير الدين الزركلي سنة 1927م، ثم كراتشو فسكي من الاتحاد السوفياتي سنة 1957م، وعادل نويهض في معجمه عن أعلام الجزائر.

ويبرز هذا الاهتمام برحلة الورثلاني أهميتها وقيمتها التاريخية الكبيرة بفضل ما اشتملت عليه من معلومات مهمة لها علاقة بالحياة السياسية والاقتصادية وأسلوب العيش، ومستوى الثقافة، والعادات والتقاليد، والاهتمامات الشعبية للمدن والبلدان التي زارها خلال رحلته إلى الحج انطلاقا من مجانة، زمورة، قصر الطير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي ناجي، نفطة، الحامة، توزر، زوارة، طرابلس، تاجوراء، لبدة، زليتن، مصراتة، بلاد السرت، ثم إقليم برقة والإسكندرية والقاهرة والمدينة ومكة، أما في طريق عودته فقد مر بالقاهرة والإسكندرية، وطرابلس، تونس، والكاف، وقسنطينة وزمورة قبل أن يصل إلى قريته بني ورثلان.

ويخبرنا الورثلاني عن دخوله إلى مكة المكرمة واستئجاره وأهله لبيت قصد الإقامة، ونفس الأمر قام به مرافقوه، الذي كان يلتقي بهم في المسجد الحرام، الذي جواره، ولم يتركه إلا لأمر مهم، وعدد في رحلته مناسك الحج والعمرة، ويذكر بالأماكن الواجب زيارتها، خاصة منها الدار التي ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي حولت إلى مسجد أصبح مزارا لكل الوافدين إلى مكة المكرمة. ويعدد لنا الأئمة والعلماء الذين التقى بهم في الحرم المكي، ومنهم الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي، الذي ألف في التاريخ، وأشار إلى علماء وصلحاء القرن الحادي عشر، وإلى جانب ذلك التقى أيضا بمحمد عبد الباقي الاسكندراني المالكي والشيخ ادريس بن أحمد الصعدي المنسوب إلى صعدة في اليمن.

وينتقل الورثلاني إلى الحديث عن دخول المدينة المنورة في وقت الضحى، حيث نزل الركب المغربي عند الباب الذي يذهب منه إلى جبل أحد، ويؤكد أنه غشيهم نور عظيم وبهاء قوي لا يخفى عن المؤمنين إلا من حجب عنه ونزع إلى الشيطان الرجيم. لقد عاش الورثلاني نفحات روحانية عظيمة في المسجد النبوي الذي دخله من باب السلام ووصل إلى الروضة، وأصابه خوف شديد حتى أنه يقول: "تيقنت أني ليس أهلا لمشاهدة الرسول"، ولما واجه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أخذت دموعه في النزول، وبذلك زار أكرم نبي وأفضل رسول وسلم عليه وعلى صاحبيه أبا بكر وعمر.

E- ISSN : 2571-9742
DM

وذكر أيضا اجتماعه بالشيخ السمان القريشي المدني، الذي سلم الورثلاني تأليفا من نظمه بعنوان الصلاة، وطلب منه أن يشرحه ووعده الرحالة بذلك، وأشار إلى عقده حلقات علم مع علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وعظم عليه أمر توديع النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذ ينوح كالثكلى العديمة لولدها، واعتبر هذا الفراق أعظم المصائب، حتى قل صبره وهون على نفسه بانتقال خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم من دار الدنيا وفراقه لأصحابه.

ومما يظهر القيمة التاريخية لرحلة الورثلاني اتسامها بالميزات الآتية:

-الالتزام بالصدق في كل ما أورده من أحداث، ويعبر عن رأيه بصراحة، وينتصر للحق إذا رأى في ذلك مصلحة عامة.

-تحرى الورثلاني الحقيقة، ولم يكتف بالمشاهدة وإنما يسعى إلى تأكيد توجهاته بالعودة إلى المصادر الذين سبقوه كأبي سالم العياشي، والبكري، والغبريني وغيرهم.

-التزامه بعرض الواقع كما هو دون تحريف أو تشويه، ولذلك كانت انتقاداته لاذعة للحكام والولاة المسئولين في نظره عن انعدام الأمن، وسوء الأخلاق.

-تحلى الورثلاني بالتقوى والورع، في مدحه للناس الصالحين والعلماء، ويظهر ذلك في تقربه منهم وزيارة أضرحة الأولياء الصالحين.

-التزامه بأسلوب فيه الكثير من المحسنات البديعية والمرادفات، والاقتباسات القرآنية والنبوية.

ولا ريب أن رحلة الورثلاني رغم نقصها في بعض الجوانب، تعد موسوعة حقيقية عن الجزائر وأقطار العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر، وساهمت رحلاته المتعددة إلى الحج، وإتقانه للغة العربية، ومعرفة عادات الدول التي مر بها إلى إصدار أحكام منصفة على العصر الذي عاش فيه وأهله . كما تعد الرحلة مصدرا أساسا من أجل التعرف على أوضاع الجزائر، وبعض الدول العربية أثناء القرن 18م، فقد سجل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، ووصف طريق الحج المحفوف بالمخاطر وترجم للعديد من العلماء والصلحاء والمشايخ سواء الذين درس عليهم، أو أولئك الذين تقرب منهم ، فهو عندما يتحدث عن النخبة في رحلته، يقصد العلماء الذين يقرنهم أحيانا برجال السلطة المنتمين إلى عائلات دينية ذات تقاليد علمية معروفة.

وحتى المدح الذي مدح به بعض شخصيات الرحلة، والانتقادات التي تضمنتها، إنما هي معيار مهم عن موضوعية الورثلاني، وما يؤكد هذا التوجه استعراضه لطبائع وسلوك المصريين والحجاج المغاربة،

E- ISSN : 2571-9742

وإعادته لأصل النزاع إلى سلوك المغاربة وأعمالهم الرديئة بالإضافة إلى ما سجله من انتقادات لجزائريين مثله مثل سكان زمورة وأهل عامر، وترك انطباعات كثيرة عن ركب الحجيج من مختلف الدول العربية، بما في ذلك ركب مصر.

ومن هنا تعتبر المعلومات التاريخية الغزيرة التي أوردها الورثلاني تكملة لما ورد في رحلات الذين سبقوه، ومنهم الدرعي والعياشي، وتساهم في إعادة بناء تاريخ الجزائر والدول العربية التي أفاض الورثلاني بالحديث عنها في رحلته.

على الرغم من البعد الزمني بين رحلتي البجائي والورثلاني، إلا أن قواسم مشتركة تجمع بينهما، من أهمها غزارة المعلومات التاريخية والجغرافية، ووحدة أهداف الرحلتين، كما اشترك الرجلان في تقديس أرض الحرمين الشريفين، وذكر العلماء والصلحاء من سائر البلاد الإسلامية، ناهيك عن الإشارة إلى تعلق الجزائريين بأرض الحجاز لما تحتويه من مقدسات إسلامية تشكل رموزا لوحدة الأمة الإسلامية.

الهوامش :

[1] أحمد أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، تعريف وتعليق وتلخيص أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

[2] الحسين الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974.

[3] أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 18.

[4] نفسه، ص 19.

[5] نفسه، ص 22 – 23.

[6] نفسه، ص 92.

[7] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500 – 1830م، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 85.

[8] أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص 20.

[9] نفسه، ص 37.

[10] نفسه، ص 24.

[11] نفسه، ص 29 – 30.

E- ISSN : 2571-9742

[12] نفسه، ص 36 – 37.

[13] نفسه، ص 64 – 65.

[14] نفسه، ص 65.

[14] نفسه، ص 37 – 38، 71 – 72.

[15] الحسين الورثلاني،المصدر السابق، ص 308.

[16] نفسه، ص 11، مختار بن الطاهر الفيلالي، رحلة الورثلاني، عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، د. ت، ص 10.

[17] الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص 549.

18.Hadj Sadok, « A travers la berberie orientale du XVIII siècle avec le voyageur Al-Warthilani », R. Af, 1951, p. 317.

[19] سعيدوني ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 418.

[20] مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 15.

[21] الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982، ص 141.

[22] سعيدوني ناصر الدين،المرجع السابق، ص 418.

[23] ..ختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص15.

[24] نفسه، ص 19.

[25] الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص 597.

[26] نفسه، ص 290.

[27] نفسه، ص 52 – 53.

[28] نفسه، ص 57 – 58.

[29].Vayssettes (E), Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837, Paris, Bouchene, 2002, p. 182.

[30] مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 71 – 73.

[31] سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص 419 – 420.

[32] الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص423 – 425.

[33] نفسه، ص 456 – 457.

[34] مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص 182.

E- ISSN : 2571-9742

[34] الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص 531.

[35] سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص 420.

[36] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 398.

[37] سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص 421 ، شارف رقية، الكتابات التاريخية الجزائرية في نهاية القرن 12هـ وبداية 13هـ/نهاية 18 وبداية 19م، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1999 – 2000م.

[38]. Merouche (L), Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane, I. Monnaies, Prix et revenus, 1520 – 1830, Paris, Boucherie, 2002, p. 232.

[39] الحسين الورثلاني، المصدر السابق، ص 539 – 541، 700 – 701، 194 – 195، 481.